قسوة القلوب

مرض " قسوة القلوب " مرض خطير ومنتشر ، ونعنى بقسوة الفلب : ذهاب اللين منه ، وقلة الرحمة فيه ، والبعد عن الخشوع ، وأن صاحبه لا ينتفع بموعظة ، ولا يقبل نصيحة ، ولا يميز بين الحق والباطل ؟!

والقلب القاسي أبعد ما يكون من الله تعالى ، وعن دينه وشرعه وتعاليمه . وقد ذم الله تعالى في كتابه هذا الداء العضال ، الذي ظهر فى الأمم السابقة كاليهود وغيرهم ، فقال سبحانه مخاطبا لهم وموبخا { ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة } البقرة : 74 . أي : صارت قلوبهم كالحجارة في القسوة والصلابة .

وقال تعالى { ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نَزَل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمل فقست قلوبهم وكثيرٌ منهم فاسقون } الحديد : 16 . فنهى تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، الذين لما طال بهم الزمان بالإيمان و العمل الصالح ، قست قلوبهم وملت الطاعة ، وسئمت القربة ، فتغيروا وتغيرت أحوالهم ، ففسقوا وضلوا .

وقد اعتنى الشرع الحكيم بهذا المرض ، وسعى الى تطهير المؤمنين منه ومن صوره , وحث العباد على إصلاح قلوبهم ، وتفقد أحوالهم ، فقال الرسول ﷺ : " ألا وإن فى الجسد لمضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب " متفق عليه .

وقال ﷺ : " إن الله لا ينظر الى أجسامكم ، ولا الى صوركم ، ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم " رواه مسلم .

قال أهل العلم : إن القلب إذا صلح ، استقام حال العبد ، وصحت عبادته , وأثمرت له الرحمة والإحسان الى الخلق , وصار يعيش فى سعادة وفرحة تغمره لا تقدر بثمن ، وذاق طعم الأنس بالله ومحبته ، ولذة مناجاته ، مما يصرفه عن النظر الى بهجة الدنيا وزخرفها والإغترار بها ، والركون اليها ، وهذه حالة عظيمة يعجز الكلام عن وصفها , ويتفاوت الخلق فى مراتبها ، وكلما كان العبد أتقى لله ، كان أكثر سعادة ، ومن دخل جنة الدنيا ، دخل جنة الآخرة .

وإذا قسى القلب وأظلم ، فسد حال العبد ، وخلت عبادته من الخشوع ، وغلب عليه البخل والكبر وسوء الظن , وصار بعيداً عن الله ، وأحس بالضيق والشدّة والضنك ، وافتقرت نفسه ولو ملك الدنيا بأسرها ، وحرم لذة العبادة ، ومناجاة الله ، وصار عبداً للدنيا ، مفتونا بها , وطال عليه الأمد !!

وقسوة القلوب من علامات الساعة : فعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إن أول ما يرفع من الناس الخشوع " رواه الطبراني (7/ 295) وغيره .

ومما يدل على انتشار هذا المرض الخطير " قسوة القلب " في الأمة اليوم ، المظاهر الآتية :

- عدم الشعور بالخشوع في الصلاة والعبادة .

- عدم التأثر بسماع القرآن وتلاوة آياته ، والتباكي عند ذلك .

- عدم التورع عن الشبهات أو المحرمات في المعاملات وغيرها .

- الظلم والاعتداء على حقوق الآخرين ، وعدم المبالاة بذلك ؟!

- انتشار العقوق للوالدين ، وقطيعة الأرحام بين الأسر .

- الغلظة والجفاء في التعامل مع الناس ، وسوء الظن بين الإخوان .

وكلها علامات تدل على قسوة الفلب ، وذهاب اللين والرحمة والخشوع منه .

وهناك أمور تقسي القلب من أهمها :

1- الإعراض عن ذكر الله تعالى : قال تعالى { ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى } طه : 124.

وقال الرسول ﷺ : " مثل المؤمن الذى يذكرُ ربه ، والذى لا يذكر ربه ، مثلُ الحي والميت " رواه البخاري في الدعوات (6407) .

2- التفريط في الفرائض ونقض عهد الله : قال الله تعالى { فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية } المائدة: 13.

فجعل قسوة قلوبهم من العقوبات التي عوقبوا بها ، فلا تجدي فيها المواعظ ، ولا تنفعها الآيات والنذر .

3- فعل المعاصي والمحرمات : وهو من أعظم الأسباب لقسوة القلب ، قال تعالى { كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون } المطففين : 14.

وورد في الحديث الصحيح : " إن العبد إذا أذنب ذنبا ، كانت نكت نكته سوداء في قلبه ، فإن تاب منها ، صقل قلبه ، وإن زاد زادت ، فذلك قول الله { كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون } المطففين : 14 . رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة .

والمجاهرة بالمعاصي أشد ، كما قال الرسول ﷺ : " كل أمتي معافى الا المجاهرين " متفق عليه .

4- الجهل بالدين ، وترك التفقه فيه : قال تعالى { إنما يخشى الله من عباده العلماء } فاطر : 28 .

فمن كان بالله أعلم ، كان أكثر خشية له ، فالجهل من أعظم اسباب قسوة القلب ، وقلة الخشية من الله عز وجل .

5- اتباع الهوى والشهوات ، وعدم قبول الحق والعمل به : قال تعالى { فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم } الصف : 5.

أي : لما تركوا الحق عمدا وانصرفوا عنه ، صرفهم الله عن الهدى .

6- النظر في كتب أهل البدع والتأثر بمذهبهم : فان الاشتغال بها يصرف المسلم عن الكتب النافعة ويحرمه من الانتفاع بها.

وقال الشافعي : المراء في العلم يقسي القلوب ويورث الضغائن.

7- التوسع في المباحات وفضول النظر والطعام والنكاح : فالإكثار من ملذات الدنيا ، والركون إليها مما يقسي القلب ، وينسيه الآخرة كما ذكر أهل العلم .

8- كثرة الضحك والإنشغال باللهو : ففي الحديث الصحيح : " وإياك وكثرة الضحك ، فإنه يميت القلب " رواه الترمذي .

فالقلب إذا اشتغل بالباطل ، انصرف عن الحق وكرهه وأنكره .

9- كثرة مخالطة الناس : فالقلب يقسو بكثرة الخلطة في غير طاعة ، ويقل فيه الإيمان بالإكثار من ذلك .

- أكل الحرام : ذكرالرسول ﷺ الذى يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه الى السماء يارب يارب ومطعمه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنّى يستجاب له " رواه مسلم .

نسأل الله أن يصلح قلوبنا ، ويسدد ألسنتنا ، ويكفينا شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، إنه سميع مجيب الدعاء .